

المكتبة عام 2112: ما الذي يتغير وما الذي يبقى؟

Libraries: The Next Hundred Years

بريت بونفيلد



الملخص:

يتخيل المقال شكل المكتبة بعد مئة عام، انطلاقًا من أثر تاريخ التعليم المكتبي في الحاضر وإمكان التفكير بعيد المدى. ويرى الكاتب أن أدوات المكتبات قد تتغير، بينما تبقى رسالتها مرتبطة بالناس والحرية الفكرية وحفظ السجل الثقافي وتكافؤ الفرص والتعاون. ويدعو إلى تحويل هذه المبادئ إلى قرارات ومشروعات تبدأ اليوم، مع الاستعداد للتجريب والعمل المشترك والتعلم من الإخفاق.

الكلمات المفتاحية: مستقبل المكتبات، الحرية الفكرية، التعليم المكتبي، الحفظ الرقمي، التعاون بين المكتبات

حين نناقش مستقبل المكتبات، ننظر عادة إلى عام أو عامين مقبلين، وربما إلى عشر سنوات. ونستحضر مكتبات سابقة، مثل مكتبة جامعة ولاية كارولينا الشمالية ومكتبة دارين العامة في كونيتيكت، أو مبادرة نيت هيل في تشاتانوغا. أما هنا، فأريد أن نتطلع إلى أفق أبعد بكثير: المئة عام القادمة.

قد لا تكون المئة عام بعيدة بالقدر الذي نتخيله؛ فهي تمتد عبر حياة شخص واحد، أو حياتين أو ثلاث متعاقبة. وعندما نتطلع إلى الأمام تبدو هذه المدة عصية على التصور، لكن النظر إلى الماضي يكشف سرعة مرورها. لذلك سأعود بإيجاز إلى المئة عام الماضية، لأرى ما تصوره مكتبيو عام 1912 عن عالمنا، وكيف أسهموا في تشكيله.

يبدأ هذا الاستكشاف بالدكتورة سارة ك. فان (Sarah K. Vann). لقد توفيت قبل بضعة أشهر فقط عن ستة وتسعين عامًا، وما زلت متأثرةً برحيلها. وقد أصبحت من المعجبين بأعمالها بعد وقت قصير من بدئي دراسة تاريخ المكتبات. وكما كتبت الدكتورة فان في أطروحتها للدكتوراه، التي أتمتها في مدرسة المكتبات للدراسات العليا في شيكاغو

عام 1958، فإن الحقبة الحديثة الأولى في تعليم علم المكتبات بدأت مع ملفيل ديوي (Melvil Dewey) واستمرت حتى نشر تقرير أعدّه تشارلز ويليامسون (Charles Williamson) لمؤسسة كارنيجي (Carnegie Corporation) عام 1923.

تمثل الدكتوراة فان صلة مباشرة بتشارلز ويليامسون. فقد كان أحد كتبها دراسةً لتقارير ويليامسون، التي دشنت الحقبة الحديثة الثانية لعلم المكتبات، وهي حقبة أعتقد أننا ما زلنا نعيشها اليوم. وقد أسهمت تقارير ويليامسون، التي مولتها مؤسسة كارنيجي، في الوصول إلى إجراءات اعتماد برامج تعليم المكتبات، كما أدت مباشرة إلى نشأة التعليم المكتبي الحديث وانتشاره، ولا سيما في جامعة شيكاغو (التي مولت مؤسسة كارنيجي مدرسة المكتبات فيها). وقد منحت مدرسة المكتبات للدراسات العليا في شيكاغو أول درجة دكتوراه في علم المكتبات عام 1930، و«ظلت شيكاغو طوال العشرين عامًا التالية حتى عام 1950 الجهة الوحيدة المانحة للدكتوراه، بمعدل درجة واحدة على الأقل وست درجات على الأكثر سنويًا خلال هذه المدة، بمجموع خمس وستين درجة» (Bobinski, 1986, p. 699؛ وانظر أيضًا (Richardson, 1982).

وفي أثناء عمل الدكتوراة فان على أطروحتها، التقت تشارلز ويليامسون، فكتب إليها رسالتين. ونعرف من هاتين الرسالتين أنه قبل مئة عام، في عام 1912، كان ويليامسون قد عيّن لتوّه في مكتبة نيويورك العامة، التي كانت تعمل على منحة جديدة من مؤسسة كارنيجي لإنشاء مدرسة مكتبات خاصة بها. وقد أسهم في إعداد التكاليف للطلاب، وعمل محاضرًا أحيانًا. وكما كتب إلى الدكتوراة فان: «أخشى أنني كنت دائمًا أنظر نظرة متشائمة نوعًا ما إلى طبيعة التعليم في تلك المدرسة وجودته، ولا سيما الجزء الصغير الذي أسهمت به فيه. ثم وجدت لاحقًا أن المدرسة في مكتبة نيويورك العامة كانت تحظى بسمعة بوصفها واحدة من أفضل المدارس في البلاد» (Vann, 1971, pp. 191-192).

يتضح من هذا المقطع أن ويليامسون كان في عام 1912 قد بدأ يكوّن رؤية للتعليم المكتبي. وقد تحولت تلك الرؤية إلى التعليم الذي ما زالت برامج تعليم المكتبات تقدمه حتى اليوم. ففي عام 1918، استعانت به مؤسسة كارنيجي للمساعدة في «دراسة الأمركة» (Americanization Study) التي أجرتها. وفي عام 1919، كلّفته بدراسة التعليم المكتبي. وفي عام 1921، سلّم ذلك التقرير. وفي عام 1923، نُشرت نسخة منقحة منه. وبعد بضع سنوات، وبناءً على عمل ويليامسون إلى حد كبير، مولت مؤسسة كارنيجي مدرسة المكتبات للدراسات العليا في شيكاغو.

إن الإنتاج العلمي للدكتوراة فان يربطنا بدراسات ويليامسون. وكثير من طلاب الدكتوراة فان يعملون اليوم في المكتبات، ويعلمون أيضًا طلاب علم المكتبات. فهذه إذن نحو مئة عام في عمر واحد أو عمريّن أو ثلاثة.

لكن هل يعني أننا نستطيع عبور مئة عام بهذه السرعة أن التفكير فيها أمر عملي؟ أظن ذلك. بل أظن أنه ليس عمليًا فحسب، بل ضروري أيضًا.

لماذا نفكر في مكتبة بعد مئة عام؟ الفكرة والرؤية:

السبب الأول الذي يجعلني أظن ذلك ضروريًا يستند إلى حجة طرحها بول غراهام (Paul Graham)، وهو مبرمج وكاتب مقالات، وربما أكثر مستثمري رأس المال المخاطر تأثيرًا في العالم. ومن أفضل مقالاته مقال بعنوان «The Hundred-Year Language» (لغة المئة عام). وفكرته أننا سنظل نستخدم لغات برمجة الحاسوب بعد مئة عام، وأن

البرامج المكتوبة بهذه اللغات ستوفر الشيفرة اللازمة لكل الأشياء المستقبلية الرائعة التي لا نملكها بعد، مثل المدن في الفضاء الخارجي والسيارات الطائرة. ولذا يتساءل غراهام: هل نستطيع اليوم أن نتخيل كيف قد تبدو لغة البرمجة المستخدمة في السيارات الطائرة؟ وإن استطعنا، فهل نرغب في البدء باستخدامها الآن؟

يجيب غراهام عن السؤالين بالإيجاب. فنحن نستطيع أن نتخيل لغة المئة عام، ونريد أن نبدأ باستخدامها في أقرب وقت ممكن. ولذا يشرع غراهام في تصميم تلك اللغة ووضعها موضع الاستخدام الفوري. والجانب السلبي أن اللغة قد تعمل ببطء على معالجات اليوم؛ أما الجانب الإيجابي فهو أنها، بعدم انشغالها بقيود اليوم، يمكن أن تكون أكثر أناقة من اللغات المعاصرة، وقد تسهم أيضًا في حفز الناس على بذل مزيد من الجهد لتطوير معالجات أسرع. بل قد تعجل بظهور السيارات الطائرة.

من السهل تكييف أسئلة غراهام لتتطبق على المكتبات: هل نستطيع اليوم أن نتخيل مكتبة المئة عام؟ وإن استطعنا، فهل س يرغب من يعتمدون على مكتبك حاليًا في البدء باستخدامها؟ وهل سترغب أنت في العمل فيها؟ وما الذي يمنعنا من بنائها اليوم؟

تذكر أنك إن قرأت تقارير ويليامسون لمؤسسة كارنيفي، فستري أن تشارلز ويليامسون تمكن قبل مئة عام تقريبًا من صياغة المنهج الدراسي الذي ما زال مستخدمًا في برامج تعليم المكتبات اليوم. بل إن التوصيات التي صاغها ستكون من نواح كثيرة تحسنيًا على التدريب المكتبي الذي تلقاه معظم أمناء المكتبات العاملين في المكتبات اليوم، فهو يدعو مثلًا إلى مزيد من التوحيد المعياري في المناهج الدراسية، وإلى منح شهادات للعاملين في المكتبات (وهو المصطلح الجامع الذي يطلقه على كل من يعمل في مكتبة)، وإلى استخدام أفضل للتعليم عن بعد، ولا سيما للتطوير المهني (وهو ما يسميه «Training in Service»)، أي التدريب في أثناء الخدمة).

وكما استطاع ويليامسون أن يتخيل التدريب المكتبي الذي نتلقاه اليوم ويصممه، أظن أننا نستطيع أن نتخيل مكتبة المئة عام ونبدأ في تصميم تلك المكتبة الآن. وأظن أن من يعتمدون على مكتبك اليوم سيبتهجون لو تحولت فجأة إلى مكتبة عام 2112. وأظن أنك ستحب العمل فيها. وهذا أمر حسن، لأنك في عام 2112 ستظل على قيد الحياة وستظل تعمل. وربما في المكتبة التي تعمل فيها اليوم.

لماذا نفكر في مكتبة بعد مئة عام؟ العمر الطويل وأثر القرار:

يمكنك أن ترى فكرة أنك ستظل تعمل في عام 2112 فكرة سخيفة، أو مجرد تمرين نظري. لكن عالمًا مؤثرًا واحدًا على الأقل، هو أوبري دي جراي (Aubrey de Gray)، قد يراها قليلًا من شأن الأمر. فدي جراي متخصص في علم الشيخوخة الطبي الحيوي، وكبير المسؤولين العلميين في مؤسسة (SENS)، وهي مؤسسة غير ربحية من فئة 501(c)(3) مقرها ولاية كاليفورنيا مكرسة لمكافحة عملية الشيخوخة. وقد حصل على درجات البكالوريوس والماجستير والدكتوراه من جامعة كامبريدج، وأجريت معه مقابلات في برنامج «(Minutes 60)» وفي صحيفة نيويورك تايمز (New York Times)، وقدم في مؤتمرات (TED) محاضرة بعنوان «(A Roadmap to End Aging)» (خريطة طريق لإنهاء الشيخوخة). وهو يعتقد أن العلم اللازم لتأخير كثير مما نعده عملية الشيخوخة، بل لعكسه، موجود بالفعل. والفكرة هي أن تبقى أحياء مدة كافية حتى يتمكن العلم من القضاء على كل حالة من الحالات التي تقتلنا.

لا شك أن هذا يبدو بعيد الاحتمال، أعني فكرة العيش مئة عام أخرى أو خمسمئة أو ألفاً. لكن لتتذكر أننا قضينا بالفعل على كثير من الأمراض التي قتلت أسلافنا. ولا يعوزنا الدافع للقضاء على أمراض القلب والسرطان وأمراض الجهاز التنفسي والسكتة الدماغية وغيرها من الأسباب الرئيسية للوفاة. وقد حققنا في العقود القليلة الماضية تقدماً هائلاً في تشخيصها جميعاً وعلاجها.

لماذا يهم احتمال أن نعيش مئة عام أخرى؟ لأنه يدفعنا إلى التفكير بمنطق قريب من نصيحة وارن بافيت في الاستثمار: ليتصرف المستثمر كما لو أن لديه بطاقة لا تسمح طوال حياته إلا بعشرين قراراً استثمارياً، وكل قرار يستنفد واحدة منها (نقلًا عن (Mark Hulbert)، «(Be a Tiger)»، «(Not a Hen)» (Forbes)، 25 مايو 1992، ص 298). فحين نتوقع أن نتحمل بأنفسنا النتائج البعيدة لأفعالنا، نتخذ قرارات أكثر تعقلاً، ونبتعد عن طلب الإشباع الفوري، ونعيد النظر في المبادئ الأساسية.

وهذا يقودنا إلى السؤال المحوري في هذا المقال: كيف ستبدو مكتبة عام 2112؟ وأي مبادئنا الأساسية سيظل قائماً؟ أظن أن المهام والمبادئ الجوهرية التي أسهمت في تعريف المكتبات منذ نشأتها ستظل ذات صلة لمئة عام أخرى على الأقل. فستظل المكتبات معنية بمستخدميها والعاملين فيها، وبالتقصي والحرية الفكرية، وبحفظ السجل الثقافي، وتحقيق تكافؤ الفرص، وبالتعاون.

ولذا فإن النقطة الأولى التي أود طرحها هي أن المكتبات ستظل معنية بالناس. بل إنها ستكون معنية بالناس أكثر بكثير مما هي عليه اليوم.

المكتبة والناس:

مكتبة المئة عام تبدأ بك أنت؛ على نحو يستحضر اختيار مجلة تايم «أنت» شخصية عام 2006، تقديرًا لدور الأفراد. نعم، أنت.

عرضت الأفكار الواردة في هذا المقال أول مرة في كلمة رئيسة في مؤتمر (Tenn-Share) لخريف 2012 في ناشفيل بولاية تينيسي. وكان بإمكانني أن أقدمها عبر سكايب (Skype) أو في جلسة (Google Hangout). وكان بإمكانني أن أقدمها ندوة عبر الويب. وكان بإمكانني أن أسجل عرضي ليشاهده الحضور مقاً ويناقشوه، تمامًا كما تفعل كثير من المكتبات مع تسجيلات محاضرات (TED). وكان بإمكانهم أن ينتظروا حتى أنشر هذا المقال ويناقشوه عبر الإنترنت. والمقصود أنه لم تكن ثمة في الأساس عوائق تقنية تمنعهم من إجراء النقاش نفسه في عزلة جماعية، أو على الأقل دون أن نكون أنا والحضور موجودين جسدياً في الغرفة نفسها في الوقت نفسه.

لكن النقاش عن بُعد لم يكن ليكون النقاش نفسه. فنحن كائنات اجتماعية نحتاج بعضنا إلى بعض، ولا تقتصر حاجتنا على الجانب العاطفي؛ إذ يتيح اللقاء المباشر معلومات أغنى وفهماً أفضل. وما يزال التواصل الإنساني وجهًا لوجه أقدر وسائلنا على نقل هذا الثراء، ولا أتوقع أن تتبدل هذه الطبيعة في المئة عام القادمة.

وإذا صح ذلك، فإن مكتبة عام 2112 ستخصص وقتاً وجهداً وموارد أكبر للتفاعل الإنساني. وقد تبدو فكرة «استعارة شخص» اليوم طريفة، لكن برامج المكتبة البشرية التي تنظم لقاءات مع أشخاص للاستماع إلى تجاربهم تسير في اتجاه أراه صحيحاً. وينبغي أن تكون المكتبة نقطة التقاء للتعرف إلى أشخاص جدد.

حين نلتقي أناسًا جدًّا تتعلم شيئًا. وإذا أمكن أن يقوم خلف هذه التفاعلات تنظيم مدروس يراعي احتياجات المشاركين، فقد تؤدي المكتبات عملًا أفضل في تزويد الناس بالمعلومات عن مجتمعهم، وعالمهم، وأي موضوعات يهتمون بدراستها. ولا أتحدث عن المكتبات العامة وحدها؛ فأنا أظن أن كل مكتبة تستطيع أن تؤدي رسالتها على نحو أفضل بتعزيز مزيد من التفاعل المباشر وجهاً لوجه.

وتدعو فكرة التفاعل الإنساني الفني بالمعلومات وعالي الجودة أيضًا إلى أن ننظر في استثمار أكثر بكثير جدًّا فيما نعدّه حاليًا البرامج والأنشطة المكتبية. وهذا يعني تكيف مساحاتنا لاستيعاب هذه التغييرات. ويعني تدريبًا إضافيًا للموظفين. ويعني أن نعرف المزيد عما يريد جيراننا وطلابنا وأعضاء هيئة التدريس معرفته. والبذور موجودة، وكثير من المكتبات تقوم بالفعل بعمل مذهل في هذا المجال. لكن ماذا لو كنا ما زلنا في المراحل الأولى جدًّا من حراك ما؟

وامتدادًا لهذه الفكرة، لا يوجد ما يمنع المكتبات من أن تصبح أول ما يفكر فيه الناس حين يبحثون في مجتمعهم أو حرمهم الجامعي عن أنشطة تتضمن رواية القصص والفنون البصرية والموسيقى. فكما هو الحال مع مؤتمرات المكتبات، لم تقل القدرة على رقمنة القصص والفنون البصرية والموسيقى من رغبتنا في معاشة هذه الأشياء حضورًا. فحين أنظر إلى نسخ مصورة من الأعمال الفنية، أرغب في رؤية الأصل. وحين أستمع إلى ملفات (mp3) لفرقة أحبها، أرغب في حضور عرض حي.

يبدو من غير المرجح أن تتغير هذه النوازع. بل إننا نريد مزيدًا من الفن، ومزيدًا من البحث العلمي، ومزيدًا من التجارب التي يمكننا تذوقها رقميًا ومعاشتها حضورًا. والبيئة التي تعزز مزيدًا من الفن والبحث العلمي هي بيئة تقدر الحرية الفكرية وتحميها، لمتجيبها ومستهلكيها على السواء. وستظل المكتبات عنصرًا مهمًا في تلك البيئة.

المكتبة والحرية الفكرية:

المكتبات من رواد الحرية الفكرية بالفعل. فنحن نعمل بجد لضمان الخصوصية والتحرر من الرقابة. لكننا لم نبلغ الغاية بعد. والدليل الأول: استعدادنا للتضحية بخصوصية حاملي بطاقات مكتباتنا من أجل إيصال أحدث الكتب الإلكترونية الأكثر مبيعًا إلى أجهزة كيندل (Kindle).

وهذا ما أراه لمكتبة المئة عام. هناك مشروع برمجيات مفتوحة المصدر يسمى (Tor) يتيح للناس تصفح الويب دون الكشف عن هويتهم، موقرًا أعلى مستوى من الحرية الفكرية يمكننا إتاحتها بسهولة في ظل البنية الحالية للإنترنت. وهناك خوادم مثبت عليها (Tor) في جميع أنحاء العالم. ولاستخدامها تثبت برمجية عميل على حاسوبك. ولسوء الحظ، فإن خوادم (Tor) ليست كثيرة جدًّا، وسعتها محدودة، والتصفح المجهول الهوية ليس بسرعة تقديم صفحات الويب بالطريقة المعتادة.

لكن في هذا البلد وفي جميع أنحاء العالم عدد هائل من المكتبات. وهي تميل إلى أن تكون موزعة جغرافيًا توزيعًا جيدًا، وتميل إلى امتلاك قدر لا بأس به من سعة الاتصال. ولا يوجد ما يمنعنا من استخدام تلك السعة لصالح (Tor)، أو أي حل يخلفه. ولا يوجد ما يمنعنا من تثبيت برمجية (Tor) على حواسيبنا وتعليم مستخدمي المكتبة تثبيتها على حواسيبهم. ولأنه لا يوجد ما يمنعنا، وهناك أسباب وجيهة كثيرة تدعونا إلى ذلك، أظن أن ثمة فرصة جيدة جدًّا لأن يحدث ذلك.

إذن نستطيع أن نوفر الوصول المجهول الهوية إلى الويب لكل من يريده. فهل نستطيع أيضًا أن نوفر الوصول إلى الإنترنت للجميع؟ من الجوانب التي لم تلقَ ما تستحقه من تقدير في مبادرة «حاسوب محمول لكل طفل» (One Laptop Per Child) فكرة أن كل حاسوب محمول يمكن أن يكون عقدة في شبكة لاسلكية متشابكة (mesh network)، تتيح للوصول إلى الإنترنت أن ينتقل لاسلكيًا بالتسلسل من حاسوب محمول إلى آخر. وقد قطعت تقنية الشبكات المتشابكة شوطًا طويلًا منذ اقترحت مبادرة «حاسوب محمول لكل طفل» أول مرة. ومرة أخرى، تميل المكتبات إلى أن تكون منتشرة جغرافيًا انتشارًا جيدًا. ففكر فيما يمكننا فعله بشبكتنا الخاصة، التي يمكننا ربطها ببقية الإنترنت، ولكن فقط إن أردنا ذلك. لن يكون ذلك صعبًا جدًا، وهو يزداد سهولة طوال الوقت.

وأخيرًا، أرى المكتبات تساعد الناس على النشر دون الكشف عن هويتهم. فمن الصعب اليوم النشر دون الكشف عن الهوية، ويبدو أن مشاركة أفكارنا مع حماية هويتنا في الوقت نفسه تزداد صعوبة. وقد يكون إخفاء الهوية موضوعًا حساسًا ومخيفًا. لكنني أظن أن الإيجابيات في هذا الشأن تفوق السلبيات.

المكتبة وحفظ السجل الثقافي:

وما دمنا نتحدث عن مساعدة الناس على النشر، ينبغي أن نتحدث أيضًا عن دورنا التقليدي في المساعدة على تنظيم السجل الثقافي. أظن أن من الواضح تمامًا أن ما يُنشر كل عام من الكتب والمقالات والتدوينات يفوق ما نُشر في أي وقت في تاريخ البشرية. وكذلك الصور والتسجيلات الصوتية ومقاطع الفيديو. وتحتاج المكتبات إلى أن تؤدي دورًا أكثر فاعلية بكثير في المساعدة على تنظيم هذه المواد وحفظها. يُضاف إلى ذلك أن لدينا قدرًا هائلًا من المواد التي لم تُرقم بعد، وقدرًا هائلًا يحتاج إلى الحفظ.

أقدر طموح جوجل؛ فقد ساعد مشروع كتب جوجل على فهم متطلبات الرقمنة الواسعة، وعلى تطوير معداتها وبرمجياتها. لكن علينا أن ندرك أيضًا أن الكتب كانت من المواد الأيسر معالجة: فهي مطبوعة، ومفهرسة جيدًا في الغالب. أما قدر كبير من المواد التي تنتظر الرقمنة والحفظ، فيفتقر إلى الطباعة أو الفهرسة أو كليهما، مثل اليوميات والمخططات المعمارية والسجلات الطبية المكتوبة باليد.

فكر في المنطقة التي تعيش فيها. لعل بالقرب منك حيًا فيه بيوت جميلة جدًا وقديمة جدًا؟ كم يبلغ عمر تلك البيوت تقريبًا؟

حين ننظر إلى ما وراء المحيط الأطلسي، أظن أننا نستطيع أن نستدل استدلالًا جيدًا على أن تلك البيوت ستظل على الأرجح مستخدمة مساكن بعد مئة عام من الآن. بل ربما بعد خمسمئة عام من الآن حين تبدأ التفكير جدًّا في التقاعد. وسيكون الناس الذين يسكنون تلك البيوت بعد خمسمئة عام مهتمين بمعرفة من سكنوا بيوتهم قبلهم، وأصل بيوتهم، وكل التغييرات التي مرت بها على طول الطريق.

لدينا كثير من هذا النوع من المواد في المكتبة التي أعمل فيها، ولعل لديكم مثلها في المكتبات التي تعملون فيها. ومن الصعب حقًا رقعمتها وإتاحتها وأرشفتها. وأتوقع أننا س نجد السبيل إلى ذلك في المئة عام القادمة.

المكتبة وتكافؤ الفرص:

ستواصل مكتبة المئة عام، كما تفعل اليوم، الحد من آثار عدم المساواة. وأصف المكتبات أحيانًا بأنها تعاونيات للمعلومات، وأحيانًا بأنها تعاونيات تتيح سلعًا معمرة قليلة التكلفة لا نحتاج إليها باستمرار. لكن الوصف الذي أراه أبلغ هو أنها تعيد توزيع الفرص.

ومن حسن حظ المكتبات أن توسيع الفرص يحقق مصلحة المجتمع بأسره. فقد يرغب كل منا في إلحاق أبنائه بأفضل مدرسة، لكنه يريد أن يكون قبول سائر الأطفال قائمًا على جدارتهم.

فكيف تعيد المكتبات توزيع الفرص؟ إن المساعدة في دعم التعليم أمر بديهي، وسيظل مهمًا، لكنه لا يكفي. ففكر في الأشياء التي نحظى بنعمة اعتبارها من المسلمات، لكنها بعيدة المنال نسبيًا عن شرائح ضخمة من أحرماننا الجامعية ومجتمعاتنا. أتحدث عن تصاريح دخول المتاحف، وتذاكر الفعاليات الثقافية خارج المكتبة مثل الأفلام والحفلات الموسيقية وحصص اللياقة البدنية ودروس الموسيقى. هذه الأشياء يمكن تشاركتها. وكذلك الأدوات، والبذور، وطقوم الأشجار، والسيارات، حتى حين تبدأ في قيادة نفسها بنفسها. بل حتى حين تبدأ في الطيران.

يهمني الدليل على الاحتياجات الأكثر إلحاحًا، تلك التي تستطيع المكتبات أن تحدث فيها أكبر فارق. وأحسب أنها وثيقة الصلة بالطلاب، ولا سيما الأصغر سنًا منهم.

وأظن أن المكتبات، شأنها شأن الجامعات والأطباء والمستشفيات، تستطيع أن تساعد أشخاصًا ينجحون لاحقًا، ثم يعودون لدعمها امتنانًا لما قدمته لهم. فتعليم إنسان أو إنقاذ حياته قيمة في ذاته، ولا أرى أن الجامعات أو الأطباء يعملون طلبًا للتبرعات المستقبلية، ولا أقترح أن تفعل المكتبات ذلك. لكن مساعدة أشد الناس حاجة وتغيير حياتهم قد تمكنهم من النجاح، وتدفعهم إلى مشاركة هذا النجاح بدعم المؤسسات التي ساندتهم.

المكتبة والتعاون:

تتطلب معظم هذه الأفكار تنسيقًا بين المكتبات، وحتى الأفكار التي يمكن تنفيذها منفردة تستفيد من التعاون. ولحسن الحظ، تتقن هذا المجال. ولعلنا نحتاج منذ الآن إلى شبكات تجمع اتحادات المكتبات نفسها، وقد نحتاج بعد مئة عام إلى مستويات أوسع من هذا التنسيق.

وأنا أؤيد ذلك تمامًا. فكما أشار آخرون، لو تخلصنا من جمعية المكتبات الأمريكية (ALA) وبدأنا كل شيء من الصفر، لكان ما سننشئه شبيهًا جدًا بجمعية المكتبات الأمريكية. وينطبق الأمر نفسه على مركز (OCLC). وأحسب أن ما نحتاج إليه حقًا، إلى جانب جمعية المكتبات الأمريكية ومركز (OCLC)، منظمة أو اثنتان أو ثلاث أخرى من المنظمات الكبرى الجامعة للمكتبات. وربما تكون تلك هي المكتبة العامة الرقمية الأمريكية (Digital Public Library of America).

لا أعرف ما المنظمات التي ستظهر، لكنني أعرف أننا إن كنا سننشئ شبكات متشابكة، ونوفر الوصول المجهول الهوية للجميع، ونرقم كل ما يحتاج إلى رقمنة، ونبنى نهجًا متأنيًا حقًا وقائمًا على الأدلة لتوزيع الفرص وإعادة توزيعها، فسيتعين علينا أن نعمل معًا لتحقيق ذلك.

استراتيجيات:

من الاستراتيجيات التي تساعدنا على تحسين قدرتنا على إعادة توزيع الفرص، وعلى العمل بفاعلية أكبر عمومًا، أن نتعرف إلى تاريخنا تعرفًا أفضل. فالدكتورة فان لم تقض خمسينيات القرن العشرين في دراسة أعمال رواد التعليم المكتبي من ديوي إلى ويليامسون لأن أفكارهم بدت طريفة أو عتيقة. بل درستهم لأنها كانت تؤمن بأن أفكارهم وتجاربهم يمكن أن تساعد على تحسين التعليم المكتبي في الستينيات والسبعينيات وما بعدها.

ونحتاج أيضًا إلى التفكير في المدى البعيد حقًا، وهذا يعني أن نؤمن بأن القرارات التي نتخذها الآن ستؤثر فينا وفيمن حولنا مدة طويلة جدًا. وبالنسبة إليّ، يسهل عليّ القيام بهذه القفزة إن استطعت إقناع نفسي بأنني سأكون هنا لأعاش كل نتائج القرارات التي أتخذها. وأعني بـ«أعاش» لا أنني سأستخدم المكتبات بعد مئة عام من الآن فحسب، بل أنني سأضطر إلى تحمّل الثناء أو اللوم على ما فعلته وما لم أفعله. قد لا يكون أوبري دي غراي محققًا بشأن متوسط أعمارنا المتوقع، لكنني لا أرى في التصرف كما لو كان محققًا إلا مكسبًا.

ويمكن فهم عمل بول غراهام على لغة (Arc)، التي سماها لغة المئة عام، بالطريقة نفسها. فهو مشروع شديد الطموح، يمكن النظر إليه بوصفه خدمة للآخرين أو تحقيقًا لرغبة شخصية: قد يكون هدفه بدء مشروع لن يشهد اكتماله، أو استخدام أفضل لغة برمجة ممكنة ولو اضطر إلى تطويرها بنفسه. وفي الحالين، يسعى إلى صنع شيء بالغ الجودة يفيد الجميع، وهو مستعد، كما يتبين من كتاباته، لأن يجرب ويخفق أمام الجمهور في سبيله.

آمل أن تكون المكتبات مستعدة لفعل الشيء نفسه. آمل أن نكون مستعدين للعمل فرادى ومجتمعين لنحدد بأنفسنا مكتبة المئة عام. وآمل أن نكون مستعدين للعمل علنًا ودون خوف من الإخفاق لتحقيقها في مدة أقصر بكثير من مئة عام.

ملاحظة المؤلف:

هذا المقال مقتبس من كلمة رئيسة ألقيتها في مؤتمر (Tenn-Share) في مكتبة ناشفيل العامة في 28 سبتمبر 2012. كما تأثر بفصل كتبه لكتاب (Library 2025) (ALA Editions, 2013)، الذي حرّره كيم ليدر (Kim Leeder) وإريك فريرسون (Eric Frierson). والشكر لروبرت بنسون (Robert Benson) وكيم ليدر على مساعدتهما في تحويل الخطاب إلى مقال.

المراجع:

- Bobinski, G. S. (1986). Doctoral Programs in Library and Information Science in the United States and Canada. *Library Trends*, 34(4), 697-714.
- Graham, P. Arc. <https://www.paulgraham.com/arc.html>. Accessed November 14, 2012.
- Richardson, J. V. (1982). *The spirit of inquiry: The Graduate Library School at Chicago, 1921-51*. Chicago: American Library Association.
- Vann, S. K. (1971). *The Williamson reports: A study*. Metuchen, N.J: Scarecrow Press.
- Williamson, C. C. (1971). *The Williamson reports of 1921 and 1923: Including Training for library work (1921) and Training for library service (1923)*. Metuchen, N.J: Scarecrow Press.